

المرأة المسلمة

كان الأثر المباشر لفتوح الإسلام ، هو إخضاع العرب لأخلاق بيزنطة وعادات إيران . فقد سارع البدو المنتصرون إلى أن يقتبسوا من حضارة الفرس والروم طرق المنافع ، وأساليب اللهو والترف ، ولذيد الرذائل . ولما كانوا فوق كل شيء شغوفين بالجمال^(١) ، فقد أحاطوا أنفسهم بالأسيرات الحسان ، الخبيرات المتفتنات ، المهدبات اللينات ، اللواتي دفعنهم إلى أن يهملوا وينسوا رفيقهم السمراء ، وزوجتهم الصارمة النافرة . ولم يكدهم يتقضى مائة عام بعد وفاة محمد ، حتى كان الخمر ومجون الخلفاء ، والمملاذات اليسيرة المنال والجوارى والغلمان ، قد أفسدت الأخلاق وقضت على أهم صفات العرب الأصيلة . ويمكننا أن نميز منذ ذلك الحين بين طائفتين من النساء : الزوجة وهى القالب الذى تصنع فيه الأولاد ، والبحارية وهى أداة المتعة وزينة الحريم . وأصبح التعليم خصوصية الجوارى ؛ فقد كان حسنهن يحلى بجميل الفنون ، إذ كانت وظيفتهن فى آخر الأمر هى الإمتاع . لقد كن يرقصن فى رشاقة ، ويغنين فيطربن ، ويرتجلن الشعر ، ويحفظن الأخبار ، ويعرفن كيف يلقين فى كل مقام مقالا ، وكيف يروين من القصص ما يسحر سامعين من

(١) قالوا : « عقل المرأة جمالها ، وجمال المرء عقله » .

أهل العلم والشعر والأدب والبراعة . وأما الزوجة فقد كانت على عكس ذلك تنتشع بقرار الأم ، وتعيش في معزل عن المجتمع ، وتهمل عن عمد ثقافتها وتظهر ما تتميز به من جهل واضح كان هو الدليل على فضلها ، والوثيقة التي تثبت بها عريق نسبها . ولقد كان يبدو في بعض عصور الحضارة الرفيعة المتألفة - كعصر الرشيد وألف ليلة وليلة ، وزمن خليفة الأندلس عبد الرحمن والحسنة زهرة ، وزمن الفاطميين وملوك غرناطة - أن مكانة المرأة في الصدارة . وبلغ من دلال الحسان في مختلف تلك العصور ، عصور النساء والأدب ، أن بن لا يلقي السلاح حتى يحصلان على شيء من آثار الفن صيغ من وحيين ومن أجلهن ، كقصيدة أو أرجوزة ، أو أنشودة خفيفة . ولذلك كان الشعر في تلك العصور منصرفا في جملة إلى التغني بالمرأة والغزل .

وكان لكل شاعر ذخيرة من الألفاظ والمعاني الصالحة للمناسبات ، يستطيع أن يصوغ منها أرشق أسلحة الهجوم أو الدفاع ، كما يقتضيه هذا الموقف أو ذاك من مواقف الغرام . فقد كان كل شاعر يحرص على أن يتمتع بحماية واحدة أو أكثر من حظيات القصر ، وكان أولئك يغمرون الشاعر بالنعم مقابل ما ينظم فيهن من أبيات المدح أو المحجون . فراجت حينذاك وتدفقت الأعياب البيان وقصائد الغزل ، مما لا نجد له مثيلا في أي أدب آخر . وفاضت في كل دار وازدهرت أبيات الشعر الصادحة بروعة الحسن والحب ، وانبثقت من كل جانب كأنما أطلقها

سحر ساحر . وكانت الأبيات تخط بحروف من الذهب أو الفضة وتعلق على الأبواب ، أو تنحت في الرخام وتثبت على صفحات الجدران ، أو تطرز على الحرير فتكسو الفارق والأرائك . وكان النساء يحملن من أبيات الشعر ما تخطه الحناء على أكفهن ، وما تزدان به مناديلهن وبراقعهن ومراوحهن وخواتمهن وأقمصتهن وأوشحتهن . . وكانت الأبيات التي تجاو مفاتن الحسان ورقهن ، تناسب الموضع الذي علقت فيه أو نقشت عليه أو طرزت أو وشمّت به . وهكذا جمعت بين الحب والشعر وشائج وثيقة ، لا يمكن معها تمييز أحدهما من الآخر ما دام الحب يبدو لنا موحياً بالشعر والشعر يوحى بالحب كذلك .

ولقد أدى ذلك بالطبع إلى رفع مكانة المرأة — أو مكانة بعض النساء على وجه التحديد .

وما يؤيد لنا تلك الظاهرة ، هاتان النادرتان :

في ذات يوم تجاسرت جارية من حظيات الخليفة عبد الرحمن ، على أن تخاصم مولاهما ، فاعتكفت في مسكنها ، وأقسمت إنه لخير لها أن يغلق دونها الباب من أن تفتحه للخليفة . وأفرع هذا الحديث رئيس الخصيان ، فظن أنه يسمع كفرة ، وهرع يستغفر أمير المؤمنين وينقل إليه ما ألفت به الجارية العاصية من قول منكر . فأمره عبد الرحمن وهو يتسم بأن يقيم أمام باب حظيته جداراً من قطع النقد الفضية ، ووعد بأنه لن يعبر ذلك السد المانع ما لم تهدمه الجارية راضية لتستولى عليه .

وتضيف القصة أن باب الجارية - وقد هدأت ثورتها - بات مفتوحا للخليفة في الليلة نفسها^(١).

وفي ذات يوم ، راحت « رميقة » زوجة « المعتمد » تنظر من إحدى نوافذ القصر في قرطبة إلى كرات الجليد الهشة تتساقط على الأرض ، وهو منظر نادر في ذلك البلد الذي لا يكاد يبلغه الشتاء . وفجأة انخرطت في البكاء . فسألها زوجها :

— ما بك يا عزيزتي ؟

— ما بي ؟ بي أنك بربرى ظالم متوحش ! انظر ؛ ما أرق الجليد وأبدعه وما أروع ! انظر كيف تحط هذه الكرات الزائفة في رفق على غصون الشجر ، وأنت يا جاحد لا يخطر لك أن تقدم لي هذا المنظر كل شتاء ، وما طراً على فكرك قط أن تصطحبني إلى بلد لا ينقطع فيه سقوط الجليد !

فأجابها الخليفة وهو يكفكف ما سال على خديها من عبرات :

— لا تستينسي هكذا يا حياتي وخيري ، فلسوف تنالين جليدك كل شتاء بل وفي هذا المكان ذاته ، وأنى لكفيل بذلك .

وأمر بغرس أشجار اللوز على سلسلة قرطبة بأكملها حتى يحل ما يكسو هذه الأشجار الجميلة من زهر أبيض محل كرات الثلج

(١) كاردون (Gardonne) : تاريخ أفريقيا وأسبانيا ، الجزء الأول. وفلوريان (Florian) : موجز تاريخي عن عرب الأندلس ، ص ٣٣ - ٣٤ .

البيضاء التي هامت بها « رميقة » (١) .

وما تلك الأحاديث الشائعة إلا روايات من وشى الأدب . وأما الواقع ، فإن الجوارى المرموقات كن يسارعن إلى تسوية وضعهن الاجتماعي ، ويسعين إلى أن يصبحن زوجات شرعيات . ولما كانت الزوجة الشرعية — حتى في الشرق — أقل نفقات من العشيقة ، ولو كانت جارية ، فقد كان الأمير يتزوج جارياته ؛ وإذ ذاك تتكلف الجارية المتزوجة أن تغدو سيدة ، وأن تثبت أنها ذات حسب ونسب كالحرائر ؛ وكان يعنى ذلك أن تركز إلى الجهل . ومنذ ذلك العهد لا نجد ثمة ما يميز بين طائفتين من النساء ؛ فقد امتد الجهل وتفشى في كل مكان . وهكذا نستطيع أن نقول : إن المرأة في جميع طبقات هذا المجتمع ، لم تكن طوال القرون الاثني عشر الماضية ، إلا الخادم الرسمية للزوج والأولاد .

ولم يقنع القوم باستخدامها ، بل عاملوها معاملة عدو يعيث شراً وفساداً . وظل الرجل زماناً طويلاً لا يشغله شاغل سوى حماية نفسه منها وحمايتها من نفسها . فلقد سجنها ، ودفنها حية في دور واسعة ذات نوافذ متينة القضبان ، وأحاطها بحشم قسا ، ما كان لهم أن يجيبوا في ذكاء دعاء الجسد ؛ لأنهم أحرصوا ؛ وأولئك هم خرس القصور التركية . ولفق القوم حكايات ، واستشهدوا بجميع أنبياء العصور الغابرة وتدخل الشعراء في الأمر ، وأجمع الكون على لعن المرأة وتحقيرها ، حتى لقد

(١) دوزى : تاريخ مسلمي أسبانيا ، الجزء الثاني ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

جرى ذلك فى كلامهم مجرى المثل ، كما فى قولهم : « النساء شرك الشيطان » .
المرأة الفاضلة بين سائر النساء كالغراب الأبيض البطن بين الغربان .
ما حرم على امرأة شىء إلا فعلته . الخضوع لإرادة امرأة يقصر العمر .
حذار أن تتبع نصيحة النساء » .

وليس هذا كله بالجدید ، فإننا لنكاد نجد ما يوازيه فى جميع
اللغات . فالصينى يقول : « ينبغى أن تسمع زوجتك وألا تصدقها أبدا » ،
والرومى يؤكد أنه « فى كل عشر نساء روح واحدة » ، والإيطالى ينصح
بإستخدام المهماز للحصان سواء أكان طيبا أم خبيثا وبإستخدام العصا
للمرأة سواء أكانت طيبة أم خبيثة ، والإسبانى يوصيك بأن تحذر المرأة
الخبيثة وبألا تثق مع ذلك فى المرأة الطيبة (١) .

وهذا مثل من ذم الشعر للمرأة :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن جزوعا إذا بانث فسوف تبين
فإن هى أعطتك اللبان فلإنها لآخر من ظلابها ستاين
وإن حلفت لا ينقض النأى عهدا فليس لمخضوب البنان يمين
وهذه حكاية أخرى :

فى ذات يوم ، لقي عيسى بن مريم الشيطان وهو يسوق أمامه أربعة
حمير محملة ، فسأله عيسى :
— ماذا تفعل ؟

(١) عن جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٢٨ .

— إني أنقل سلعا وأقصد عملائي .

— فما هذه السلعة الأولى ؟

— إنها القسوة .

— ومن يشتري ذلك ؟

— الولاة .

— وما سلعتك الثانية ؟

— إنها الحسد .

— ومن يشتريها ؟

— العلماء .

— وما هي السلعة الثالثة ؟

— سوء النية .

— ومن يشتريها ؟

— التجار .

— فما تلك السلعة الرابعة ؟

— إنها المكر .

— ومن يشتري ذلك ؟

— ذلك صنف يخص النساء^(١) .

وفيم المزيد من الأمثلة ؟ وبين أيدينا قصة « ألف ليلة وليلة » وهي

قصة ملك خائنه زوجته ، وقد تحقق من أن الجن أنفسهم — رغم ما يتخلون

(١) بيرون : النساء العربيات .

من احتياطات عجيبة - تخونهم زوجاتهم أيضاً على نطاق واسع ، فقرر ألا تخدعه امرأة فيما بعد ، ومضى يسلم للجلاد كل صباح عروس الليلة البارحة ، حتى أتى اليوم الذى تمكنت فيه شهرزاد من أن تنسيه دروس ماضيه - وما كان أوضحها - بل وأفلحت فى استدراجه إلى الاعتراف بفضل النساء ، وهى تروى له القصص . . . ألا إن كيدهن عظيم ! والشرقيون قوم قد تغذوا منذ صباهم بقصص ألف ليلة وليلة ، ثم تثقفوا بحكمة الأمثال ومأثور الحكايات ومعانى الشعر ، فأمسوا بغريزتهم يحذرون النساء رغم شغفهم بهن ، ويخشونهن ويحتقرونهن فى آن واحد . ولما كان الرجل هو الأقوى ، فقد استسلم لغرائزه الأمارة بالسوء . ومضى يروّع ويدل تلك التى كان من حقها عليه أن تظل رفيقته ، وواصل ذلك حتى جعل منها كائناً يقل عنه قدراً ، لا شخصية له ، ولا لون من ألوان الكرامة ، بل ولا روح كما قد يقال . وحينما نبه الرجل صوت ضميره يؤنبه على جوره وطغيانه ، تسلح بالكتاب الشريف ، وطفق يؤول ويعلل ويحلل ، ويقسو على النصوص فى تفسيرها ليثبت أنه يصدع بأمر رسول الله . وهكذا حدث يوم راحت أوروبا تتساءل عن سبب تخلف المرأة المسلمة ، أن كان الجواب معداً ، وكان من البساطة بحيث أقرته فى حماس : جواب يزعم أن الإسلام هو السبب الوحيد فى انحطاط المرأة وتخلفها ، وذلك بما يبيحه للرجال من تعدد الزوجات ومن الطلاق وبما يفرضه على النساء من الحجاب والانزواء . وتلك مسألة هامة خليقة بأن تستوقفنا .